مقتل الزبير في شعر جرير

استثمار الحادثة التاريخية في الهجاء

د. حاكم حبيب عزر الكريطي
كلية الآداب / جامعة الكوفة

ترسخت المثل العليا والقيم الإنسانية التي وسمت بها الحياة العربية قبل الإسلام، في العصر الإسلامي، لان تلك المثل والقيم التقت مع قوانين الرسالة الإسلامية التي أكدت المنطلق الأخلاقي للمجتمع الإسلامي، ومنحته بعداً روحياً عميقاً، وصار من المتعذر الفصل بين ما هو جاهلي وما هو إسلامي في تلك المثل العليا والقيم الإنسانية.

وفي العصر الأموي، عادت العصبية القبيلة إلى ما كانت عليه في العصر الجاهلي، وصار الانتماء القبلي عنواناً للحياة العربية في هذا العصر بفعل عوامل كثيرة [1] وراح أبناء القبائل يثيرون تلك العصبيات ويتحدثون فيها ويتعقبون ما كان منها في الجاهلية وما يتصل منها في الإسلام، إلى الحدّ الذي تناسوا فيه ما جاء الإسلام به من نبذ التفاخر والتكاثر، وحرصت القبائل على البحث عن كل ما يُمجدّها ويصف بطولات أبنائها في الجاهلية والإسلام، وفي الوقت نفسه حرصت القبائل – أيضاً – على صيانة انفسها مما يُعد خروجاً عن المثل والقيم

(١) ينظر التطور والتجديد في الشعر الأموي ١١٠، الشعراء نقاداً٨٦.

المشار إليها. وكان جهد الشعراء وسط غليان العصبية القبلية يتوجه إلى تنقية وجوه قبائلهم من السمات السلبية، بعد أنْ استعر الهجاء بينهم، وراح الشعراء المتخاصمون يبحثون في تاريخ قبائلهم عما يمكن ان يكون مادة للافتخار، ويبحثون في الوقت نفسه في تاريخ خصومهم عما يمكن ان يكون مادة للهجاء، إذ ان التحلي بالقيم العربية الأصيلة يعني حسن الثناء للشاعر وقبيلته، وفقدانها يعني تجريد الشاعر وقبيلته من عنوان الفخر الرئيس.

وحينما هاج الهجاء بين قطبي قبيلة تميم جرير والفرزدق، شعر جرير انّه امام شاعر كبير طالما تباهى بحسبه وقوة محتدّه، فهو من بيت مجاشع بن دارم بيت الشرف في تميم [(١)]، وجرير من بني كليب بن يربوع الذين ليس لهم من الشرف ما لمجاشع بن دارم[(٢)].

وكان جرير مدركاً لهذه الحقيقة، فهو يشعر بوضاعة نسبه، وانه لا يجارى الفرزدق في شرفه، حيث روى عنه بعد ان درى نادرة عن أبيه أنه قال: ((فكيف برجل يريد ان يسامى بني دارم بهذا))[(٣)]، لذلك نأى بنفسه عن الفخر ببني كليب بن يربوع، وافتخر بأبناء عمومته بني رياح بن يربوع، فقال مخاطباً الفرزدق:

أتوعِدُني وراءَ بني رياح ... كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يداك دوني [(٤)]

إذا وجدت في تاريخ رباح ما يعنيه على ان يكون نداً للفرزدق، فبنو رياح

(١) ينظر جمهرة انساب العرب٢٣٠.

(٢) ينظر م.ن ٢٢٥، والفرزدق يعد قريش القبيلة الوحيدة التي ترقى إلى مستوى قومه في الشرف، ينظر النقائض٧٤٧.

(٣) الأغاني (بولاق).

(٤) الديوان ٥٧٧.

هم أرداف الملوك في الجاهلية [1]، ومنهم سيحيم بن وثيل الرياحي الذي نافر غالباً والد الفرزدق في الإسلام [2].

وكان الفرزدق من الطرف الآخر يزدري جريراً ورهطه، وينظر إليه بوصفه راعياً حقيراً، وينظر إلى بني كليب بوصفهم لا يملكون من الشرف ما يملكه بنو مجاشع. يقول الفرزدق في هذا المعنى:

فيا عجباً حتى كليب تسبني   وكانت كليب مدرجاً للشتائم [3]

ومن هنا راح جرير يبحث عن عيب اجتماعي في الفرزق ورهطه بني مجاشع كي يسدد من خلاله سهام هجائه إليهم، فأعياه ذلك، والتفت إلى تاريخ بني مجاشع فأمدّه التاريخ بحادثة مقتل الزبير بن العوام غيلة بسيف عبد الله بن جرموز في مضاربهم، فتلقف جرير هذه الحادثة وادارها في رأسه كثيراً، ثم جعلها محوراً من ثلاثة محاور رئيسة ادار حولها هجاءه للفرزدق وبني مجاشع [4]. فكيف قدر له – أي لجرير – ان ان يجعل هذه القضية مثلبة اجتماعية تشين تاريخ الفرزدق ورهطه بني مجاشع فيما يعتقد هو؟.

يقول التاريخ ان الزبير بن عوام (رض)، بعد ان ترك معسكر عائشة وطلحة بن عبيد الله يوم الجمل، واعتزل القتال، جاء ((ووقف على مسجد بني مجاشع فسأل عن عياض بن حمار بن أبي حمار. فقال النّعر بن زمام المجاشعي: هو بوادي السباع، فمضى الزبير يريده، وخرج النّعر بن زمام مع الزبير رحمه الله تعالى حتى بلغ النّحيت ثم رجع)) [5]، وجاء عبد الله بن جرموز وقتله غيلة

---

(١) ينظر جمهرة انساب العرب ٢٢٧.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر الموشح ١٩٤ – ١٩٥.

(٤) ينظر الأغاني (دار) ٩/٣٤٢، الموشح ١٩٣.

(٥) الموشح ١٩٤.

واخذ سلبه [1] . فبنو مجاشع على وفق الرواية التاريخية لم يفرّطوا بجوار الزبير، وهو لم يستجر بهم، ولكنّ جريراً جعل جوار الزبير لبني مجاشع أمراً واقعاً، إذ عدّ المرور بمضاربهم والوقوف على مسجدهم

نمطاً من الجوار، كان عليهم ان يحفظوه. لذلك عمد إلى قطع السبيل امام من في نفسه ان يُبرئ بني مجاشع من هذه القضية. فقال مخاطباً الفرزدق:

لو كنت حراً يا ابنَ قينِ مجاشعٍ ... شيعت ضيفك فرسخين وميلا [2]

فهو يريد الفرزدق وبني مجاشع ان يشعيوا الزبير حتى يخرجوه من مضاربهم ولكنهم لم يفعلوا ذلك، كما يريد هو وليس كما يذكر التاريخ، وبهذا هيأ جرير لنفسه ما يستطيع من خلاله تقرير خروج بني مجاشع من القيم العربية الأصيلة، من خلال انتزاع القيمة الرئيسة (الجوار) منهم.

ان تمسك جرير بوهم الغدر وعدم حفظ الجوار عند بني مجاشع، نابع من حرصه الشديد على انتزاع ركيزه من ركائز فخر الفرزدق بنفسه، ركيزة الجوار، إذ ذاع صيت الفرزدق بين العرب، انه كان يجير كل من لاذ بقبر أبيه، على شاكلة ما كان يجير الجاهليون من عاذ بقبور آبائهم وأجدادهم، وقد احتفظ أبو عبيدة والمبرد بعدة من اجاراته لغير واحد ممن قصدوا قبر أبيه بكاظمة [3] . فهل تحقق لجرير ما كان يحرص على تحقيقه؟ وكيف استثمر ما الصقه خياله ببني مجاشع عامة وخصمه الفرزدق خاصة؟.

لقد احتلت هذه القضية مساحة كبيرة من الجهد الفني لجرير في شعره، إذ كرر الإشارة اكثر من خمس وأربعين مرة، وفي كل مرة يحاول ان يفتح

(١) تنظر تفاصيل ذلك كله في تاريخ الطبري ٥٣٥/٤، النقائض ٨٠/١.

(٢) الديوان ٤٥٤.

(٣) ينظر النقائض ٨٧٠/٢ وما بعدها، الكامل ٧٥/٢ وما بعدها.

آفاق متابعة أوسع تفصيلاً، يسانده في ذلك خيال خصب ورغبة في تصديق ما يقرره خياله، فيعمد إلى جرّ الملتقي إلى مشاركته في ذلك كله. ولكي يضفي جرير على مقتل الزبير بجوار مجاشع الواقعية التي يبتغيها، عمد إلى تخيل ما يمكن أو تقوله أو تفعله قريش بعد ان تعتقد بما اعتقده هو، لذلك سعى إلى اشراك قريش في البرم والاشمئزاز والنفور من غدر بني مجاشع، وتحدث بلسانهم كثيراً عن مقتل الزبير، وهو بهذا يسعى – كما نعتقد – إلى تحقيق أمرين:

الأول : ان قريشاً هم قبيلة الزبير، ومن حقهم ان ينكروا هذا الصنيع من مجاشع وانكارهم يعني تقرير لما يريده هو من إثبات قدر مجاشع.

الثاني: ان منزلة قريش بين العرب، تسّهل تسريب هذا الاعتقاد بغدر بني مجاشع إلى القبائل العربية كلها، حينما يتوافد أبناءها إلى قلة في أيام الموسم ويسمعون ما يسمعون من قريش. ويعودون بما سمعوا إلى قبائلهم، وحينما يريدون الإنصاف ويوازنوا بين فخر الفرزدق بالاستجارة بقبر أبيه، وبين ما ألصقه به جرير من غدر فترجح كفة جرير في ذلك كلّه. يقول جرير واصفاً ما يمكن ان تفعله قريش:

ومجاشع قصب هوت أجوافُه ... غرّوا الزبيرَ فأيَّ جار ضيعوا
إنّ الرزيَّة من تضمَّن قبره ... وأدى السباع لكل جنبِ مصرع
لما أتى خبر الزبير تواضعت ... سور المدينة والجبال الخشع
وبكى الزبير بناته في مأتمٍ ... ماذا يردُّ بكاء من لا يسمع
قال النوائح من قريش إنما ... غدر الحتات ولين والاقرع
ترك الزبير على منى لمجاشع ... سوء الثناء إذا يُقضّى المجمع
قتل الاجارب يا فرزدق جاركم ... فكلوا مزاود جاركم وتمتعوا (١)

(١) الديوان ٣٤٥.

فجرير في هذه الأبيات يظهر هول مصرع الزبير، وعظم خطب مقتله، ليصل من هنا إلى ما تردده النوائح من قريش في مجالس عزائهن من الحديث من غدر مجاشع (الحتات ولين والاقرع)، وهذا كله يقود إلى سوء الثناء لهؤلاء عند اجتماع الحجيج في منى، وبعد انقضاء الموسم. ويكرر هذا المعنى في آبيات أخرى فيقول:

ألـم تـرَ ان الله اخـزى مجاشـعاً ... إذا ضـم أفـواج الحجـيج المعـرف
ويـوم منـى نـادت قـريش بغـدرهم ... ويـوم الهـدايا والمشـاعر عكـف
وكان حديث الركب غدر مجاشع ... إذا انحـدروا مـن نخلتـين واوجفـوا [(1)]

لقد اتخذ جرير من الشعائر المقدسة في الحج سبيلاً لفضيحة بني مجاشع على لسان قريش، فيوم عرفات ويوم منى ويوم النحر هي أيام اجتماع الحجاج في الموسم، وفي هذه الأيام نادت قريش بقدر مجاشع لتشيع هذه السمة الممقوتة بين القبائل، ثم تتحدث الركبان بهذا الغدر بعد انقضاء الموسم. وكأن جريراً هنا يستحضر عادة العرب في الجاهلية حينما كانوا يرفعون راية في مجامع العرب لمن يغدر، ليكون ذلك فضيحة يشهد عليها المجتمعون في المواسم [(2)].

ولكي يوغل جرير في اشراك قريش فيما يعتقده هو – كما المحنا – من غدر مجاشع بالزبير، راح يهجوهم بلسان قريش. فيقول:

قالـت قـريش وقـد ابليـتم خـوراً ... ليست لكـم يا بني رغوان ألبابُ [(3)]

ويقول أيضاً:

---

(١) م. ن ٣٧٦.

(٢) يقول الحادرة الذبياني في هذا المعنى. الديوان.

فسـمي ويحـك هـل سـمعت بغـدرة ... رفـع اللـواء لنـا بهـا فـي مجمـع

(٣) الديوان ٤٧.

تقول قريش بعد غدر مجاشع لحا الله جيران الزبير ورجعوا [1]

إذن شاركت قريش جريراً فيما قرره من غدر مجاشع بالزبير، وكأنه بمشاركة قريش هذه، يستطيع ان يؤشر بهجائه موقعاً هابطاً لمجاشع في سلم قيم العرف الاجتماعي، بعد ان قدر له – فيما يعتقده هو – ان ينزل بهم من قمة المجد الاجتماعي الذي كانوا عليه، ولكي يرسخ هذا الاعتقاد في نفوس المتلقين، خص حكماء قريش بالحديث عن غدر مجاشع، فقال:

يقول ذوو الحكومة من قريش أتفخرُ بعد جاركم المُصابِ

غدرت وما وفيت وفاء حزنٍ فأورثت الوفاء بني جنابِ [2]

فالحكماء من قريش يستفهمون – وهم ينكرون –، أيفخر الفرزدق بابيه بعد مقتل جاره الزبير؟. ثم يفخر جرير بقومه من طرف خفي، ويجعل هذا الفخر على لسان حكماء قريش أيضاً، حينما يخاطبون الفرزدق بأنه غادر ولا يمكن ان يكون وفياً كحزن، الذي منع قومه من ظلم ضيفه، فجعل الوفاء إرثاً في بني جناب بن يربوع [3].

وينتقي جرير بيوت الشرف من قريش ليظهر برمهم من غدر مجاشع فيقول:

ويلومكُمُ العصاةُ وال حرب ورهط محمد وبنو هشام [4]

وفي أغلب الظن أن جريراً في اشارته إلى هذه البيوت الأربعة من قريش، لا يريد أن تفلت الفرصة من يده قبل ان يسرب هذا الاعتقاد إلى نفوس خلفاء بني

(١) الديوان ٣٦٣.

(٢) م . ن ٥٠.

(٣) حزن رجل من بني كليب بن يربوع، نزل به ضيف، فارد قومه بأن يركبوه ويظلموه فمنعه حزن. ينظر الديوان ٥٠هـ ٢.

(٤) م . ن ٥١٠.

امية، فمادام آباؤهم قد اتخذوا هذا الموقف من بني مجاشع، فحري بهم ان يسيروا على خطاهم في وسم بني مجاشع بالغدر، وهذا قد يحقق له طموحاً في الاستئثار بالبلاط الأموي مع غريمه الآخر الاخطل دون الفرزدق.

فيبعد الفرزدق ولو إلى حين عن منافسته في ذلك من جهة، ويقلل من ولعه في الافتخار بجوار أبيه وبني مجاشع من جهة أخرى. ولذلك ركز على هذا الايحاء في موطن آخر حيث قال:

إذا نزلوا نجداً سمعتم ملامة   بمجمع من الاعياص أو آل هاشم (١)

فالذي يعني جرير – فيما نعتقد – هو جمع الاعياص أولاً، لان ذكر هؤلاء كفيل بتحريك مشاعر الخلفاء من بني مروان ضد بني مجاشع، لانهم يأنفون من مخالفة اسلافهم، الذين قر في نفوسهم هذا النفور من رهط الفرزدق، أما ذكر بني هاشم فهو تتميم لصورة الخلفاء الدينية، فالصبغة الدينية للخلفاء يجسدها ذكر الهاشميين أبناء عمومتهم الذين يشاركوهم لوم مجاشع.

ويستثمر جرير أداة أخرى، آل إليها في مواجهته مع الفرزدق، تتمثل في منزلة الزبير الدينية بوصفه حواري رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – وقد اتكأ على هذه المنزلة كثيراً وهو يلهب ظهور بني مجاشع بسياط هجائه. يقول في ذلك:

يقبح جبيرل وجوه مجاشع   وتنعى الحواري النجوم الطوالع
إذا قيل أي الناس شر قبيلةً   واعظم عاراً قيل تلك مجاشع (٢)

فإذا كان جبريل – عليه السلام – الذي عرفه المسلمون بوصفة الملك المقرب من الله تعالى، وهو الذي يقبح وجوه مجاشع، فهذا اشد وقعاً في النفوس

---

(١) الديوان.

(٢) م. ن ٣٧٢.

واكثر ايلاماً للخصوم. ومن هنا تكون مجاشع في ذروة الشر بين القبائل، واعظم عاراً من غيرها.

وحينما يفكر مجاشعي بالذهاب إلى الحج التماساً لغفران الذنوب، فقد لا ينفعه هذا لان ستر البيع العتيق يبغضه، وكذلك يبغضه حجاب البيت والعباد المتطوفون. يقول جرير في هذا المعنى:

ويبغض ستر البيت آل مجاشع ... وحجابه والعابد المتطوف
وان الحواري الذي غر حبلكم ... له البدر كاب والكواكب كسف [1]

ويحرص المسلمون على ان يكون لهم سبيل مع رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – في يوم الجزاء، فان بني مجاشع لا يرجون ذلك، لانهم تركوا خليله الزبير يقول:

أفبعد متركهم خليل محمدٍ ... ترجو القيون مع الرسول سبيلا [2]

إنَّ جرير في نظرته إلى مكانه الزبير الدينية، وما يجره ذلك على خصومه ببني مجاشع، لا يخضع للتفاصيل التاريخية للحادث، كي ينطلق إلى تجسيد نظرته تلك، وانما ينطلق من الحقيقة التاريخية ليسجل ملامح الاستشراف الطامح إلى تحديد صورة بني مجاشع بعد غدرهم الموهوم بالزبير. سعى إلى تجسدي حقيقة ان الله تعالى غير راض عنهم لفعلهم هنا، لذلك كان الخزي والاهانة التي لحقت بهم جاءت منه – عزَّ وجل – بقول جرير:

ألم ترى أنَّ الله أخزى مجاشعاً ... إذا ذكرت بعد البلاء أمورها
بأنهم لا محرم يتقونه ... وان لا يفي يوماً لجار مجيرها [3]

(١) م. ن ٣٧٦ – ٣٧٧.

(٢) الديوان ٤٥٤.

(٣) م. ن ٢٦٩.

ويقول أيضا :

لقد غر القيون دماً كريماً ... ورحلاً ضاع فانتهب انتهابا

علام تقاعسون وقد دعاكم ... أهانكم الذي وضع الكتابا

أتنسون الزبير ورهط عوف ... وجعثن بعد أعين والربابا [(1)]

وكان الفرزدق كثيراً ما يفخر بالحبوة عند قومه، فهي علامة العزة والمنعة والشرف، وحينما قال ابياته المشهورة في هجاء جرير:

ان الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول

بيتاً زرارة محتب بغنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

لا يجتبى بفناء بيتك مثلهم ... أبداً إذا عد الفعال الأفضل

ليس الكرام بناحليك اباهم ... حتى ترد إلى عطية تعتل

ضربت عليك العنكبوت بنسجها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل [(2)]

شعر جرير بقسوة هذه الأبيات عليه، لأنها تجسد حقيقة يحسن بها قبل غيره – كما المحنا من قبل –، فحنق على الفرزدق كثيراً، وادار هذه الأبيات في رأسه متأملاً، فالتقط بذكائه المعهود صورة الحبوة وهي مدار فخر الفرزدق في الأبيات، واستثمرها باتجاهه مغاير، حتى صارت عنده عنواناً للذل والهوان لأنها تمنع صاحبها من الحركة، وجعل ذلك سبة على بني مجاشع، لانهم لم يتحركوا لحماية جارهم الزبير، وظلموا عاقدين حباهم لا يأبهون بما حل به، يقول في هذا المعنى منكراً على الفرزدق فخره بالحبوة:

قتل الزبير وأنت عاقد حبوة ... قبحاً لحبوتك التي لم تحلل

---

(1) م . ن ٦٨.

(2) الديوان.

وافاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثكم بذات الحرمل [1]

وهكذا جعل موطن فخر الفرزدق هجاء له، وظل يلح على هذه القضية ليجعل الملتقى يشاركه هذا التغيير الذي احدثه بنقل الحبوة من الشرف والعزة إلى الامتهان والذلة يقول:

اتفخر بالحبى وخزيت فيها وقبل اليوم ما فضحت حباكا [2]

فها هو ينكر على الفرزدق فخره بالحبوة، بعد ان انتقلت دلالتها إلى ما أراد هو فجاء بهذا الاستفهام الإنكاري ليؤكد ذلك. ومن هنا فإذا قدر لبني مجاشع ان يظلوا عاقدين حباهم بعد هذه الواقعة، فهذا يعني ان عقد الحبى عندهم قد انتقل تماماً إلى سمة الغدر يقول:

شددتم حبكم على غدرة بجيشان والسيف لم يغمد [3]

وبعد ان اطمأن جرير إلى هذا التحول الذي احدثه في دلالة الحبوة الاجتماعية عند بني مجاشع، أباح لنفسه ان يتسامى معهم في هذه الخصلة التي استأثروا بها من قبل بوصفها معقلاً من معاقل عزهم. فقال يخاطبهم:

فشدوا الحبى للغدر إني مشمرء إذا ما علا متن المفاضلة محملي [4]

وإذا قدر لجرير ان يلصق الغدر ببني مجاشع، فانه سعى في الوقت نفسه إلى تجسيد طموحه المشروع في الحديث عن وفاء قومه بني يربوع، كي يحقق لنفسه وقومه الموقع الذي يستحقونه بعد ما اشاعه من غدر خصومهم، إذا تكاد الحقائق تقرر ان الشعر كان الوسيلة شبه الوحيدة التي تؤشر مواقع الأفراد

---

(١) الديوان ٤٤٥.

(٢) الديوان ٤١٠.

(٣) م. ن ١٣٠.

(٤) م. ن ٤٥٨.

والجماعات بفعل الأسباب التي أشرنا إليها في موضع سابق. ومن هنا راح جرير يوازن بين استجارة الزبير الموهومة ببني مجاشع، وبين استجارته بهم لقد قدر لها ان تكون، ليظهر من خلال ذلك وفاء قومه، وبهذا يحقق غايتين في آن معاً، هجاء الفرزدق وقومه، والافتخار بنفسه ورهطه بني يربوع على مألوف ما ابتدعه هو والفرزدق من مزج الفخر بالهجاء بهذه البراعة الفنية [1].

واول ما استوقف جرير بهذا الإطار، ما انتحله على لسان قريش – كما مر بنا – من حديثها من غدر مجاشع، فقال مشيراً وموازناً:

ولو نزل الزبير بنا لجلى ... زياد فوارسي رهج القتام
لخافوا ان تلومهم قريش ... فردُّوا الخيل دامية الكلام [2]

فالخشية من لوم قريش تحتم على مجاشع ان يحفظوا جوار الزبير، ولكنهم لم يفعلوا ذلك. ولو نزل الزبير في بني يربوع لردوا خيل اعدائه دامية وهم يقاتلون دونه، فجرير أشرك قريش في موازنته التي اقامها، ليضفي على الغدر والوفاء سمة واقعية. فما تقول قريش هو حكم قبل ان يكون شهادة ولهذا كرر الإشارة إلى قريش في موطن آخر يقول فيه:

فما وجد الجيران حبل مجاشع ... وفياً وذا مرة في العزائم
ولامت قريش في الزبير مجاشعاً ... ولم يعذروا من كان أهل الملاوم
وقالت قريش ليت جار مجاشع ... دعا شبثاً أو كان جار إبن خازم
ولو حبل تيمي تناول جاركم ... لما كان عاراً ذكره في المواسم [3]

(١) ينظر العصر الإسلامي ٢٤١ وما بعدها.

(٢) الديوان ٥٠١.

(٣) م . ن ٥٦١.

لقد اختار جرير فارسين من فرسان العرب عصر ئذ ليكونا مستندين له في تجسيد غدر بني مجاشع وجبنهم، فقد تمنى بلسان قريش - أيضاً - ان يكون الزبير قد استجار بشبث بن ربعي الرياحي اليربوعي [(١)] أو بعبد الله بن خازم السلمي لما حل به ما حل، واختيار هذين الفارسين يعني فيما يعينه، ان بني مجاشع يفتقرون إلى مثلهما في الشجاعة وشدة البأس وحفظ الجوار، وبهذا أضاف جرير سمة أخرى إلى بني مجاشع هي سمة الجبن التي جسدها بهذه الموازنة. وإذا كان شبث بن ربعي من رهطه الذي يحق له ان يفخر بهم، فذكره لعبد الله بن خازم السلمي، يندرج في إطار محاولة جر بني سليم إلى صف الذين يعتقدون بما يقوله، لان ذكر الفارس سعني تمجيداً لقبيلته.

ويدخل في هذا الإطار حديث جرير في قصيدة له، يمدح بها قبيلة الازد إذا استثمر الموازنة بينهما وبين بني مجاشع ليؤكد الحقيقة التي توهمها وهي الغدر بالزبير. يقول مخاطباً الفرزدق:

غدرتم بالزبير وما وفيتم	وفاء الازد إذْ منعوا زيادا
فاصبح جارهم حياً عزيزاً	وجار مجاشع اضحى رمادا
ولو طرق الزبير بني علي	لقالوا قد أمنت فلن تكادا
وجار من سليمة كان أوفى	وارفع من قيونكم عمادا
وجدنا الازد أكرمكم جوارا	واوراكم إذا قدحوا زنادا [(٢)]

اهتم جرير في هذا المقطع بتصوير مواصفات النموذج الأخلاقي الأمثل الذي تجسد في قبيلة الازد، حينما ركز على سمة الوفاء بوصفها الركيزة الرئيسة في تأمله للنموذج الأخلاقي المشار إليه، لان هذا يتناغم مع عشق العرب

(١) ينظر جمهرة انساب العرب ٢٢٧.

(٢) الديوان ١٤٤.

لهذه القضية، ولأن تاريخ الازد يمده بالنماذج الفردية والجماعة التي تتبلور فيها هذه السمة. فزياد بن أبيه كان خليفة ابن عباس على البصرة، وثارت بها العثمانية فلجأ إلى صبره بن شيمان الازدي فمنعه منهم [١]، وكل هذا الذي قيل يقابله سمة سلبية بتلطخ بها بنو مجاشع، وهذا ما يريده جرير فهو يسعى إلى الموازنة بين وفاء الازد وغدر مجاشع حيث زهو الازد - ومديحهم باعث القصيدة الرئيس - بقيمة الوفاء واكرام الجار وحمايته، وحيث تصاغر مجاشع من مثلبة الغدر بالزبير. فجرير إذن نشر فضائل الازد ومخازي مجاشع بين الناس في خطين متوازيين وفي قصيدة واحدة بهذا الأسلوب الذي ابتدعه والذي يمكن ان نسميه (الموازنة في الهجاء).

وبهذه الطريقة الفنية التي ابتدعها، دافع جرير عن مخرق بن شريك بن ثمام الهذلي الذي كان ضلعه معه [٢] فنهاه الفرزدق مرتين فلم ينته. فقال الفرزدق فيه:

ولقد نهيت مخرقاً فتخرقت ... بمخرق شطن الدلاء شغور [٣]

فاجابه جرير وهو يوجه سهامه إلى المقتل الرئيس (الغدر بالزبير):

ولقد نهيتك ان تسب مخارقاً ... وفراس امك كلبتان وكير
يا ليت جاركم استجار مخرقاً ... يوم الخريبة والعجاج يثور [٤]

فها هو يجمع بين هجاء الفرزدق ومديح مخرق بالموازنة التي أشرنا إليها، إذا جمع ذلك في بيت واحد تتجسد فيه البراعة الفنية التي عرفناه بها.

أما إذا أراد جرير ان يوازن بين قومه بني يربوع وبين بني مجاشع - فانه

---

(١) ينظر تاريخ الطبري ١١/٥.

(٢) ينظر النقائض ٨٤٦.

(٣) الديوان.

(٤) م. ن ٣١٦.

يضفي من قدرته الفنية ما يمتع به الملتقى، وهو ينظر إلى مقتل الزبير بإطار فني لا يبتعد كثيراً عن الحادثة التاريخية، يقول:

إني تذكرني الزبير حمامة ... تدعو بجمع نخلتين هديلا
لو كان يعلم قدر آل مجاشع ... نقل الرحال فاسرع التحويلا
يا لهف نفسي إذْ يغرك حبلهم ... هلا اتخذت على القيون كفيلا
ولو ظهورهم الاسنة بعدما ... كان الزبير مجاوراً ودخيلا
أفتى الندى وفتى الطعان غررتم ... وفتى الشمال إذا تهب وخيلا
قتل الزبير وانتم جيرانه ... غيأً لمن غر الزبير طويلا
لو كنت حين غررت بين بيوتنا ... لسمعت من صوت الحديد صليلا
لحماك كل مغاور يوم الوغى ... ولكان شلو عدوك المأكولا [١]

يبدي جرير في هذه الأبيات ألماً مصطنعاً على مصرع الزبير، إذْ يذكره نوح الحمام بذلك المصرع وبمن قدر به من بني مجاشع، ويلتفت إلى السمات الشخصية للزبير ليؤكد عظم خطب مصرعه، ومن ثم عظم الغدر به، حتى إذا اطمأن إلى ما استقر في نفوس المتلقين عاد إلى اسلوبه في الموازنة. وهذه المرة بين قومه بني يربوع وبين بني مجاشع، من قبل قادراً على ذلك، لانه يدرك ان الفرزدق وقومه في ذروة الشرف والسيادة من تميم، ولكنّ ما اعتقد به جرير من استقرار غدر مجاشع بالزبير في النفوس اغراه بالوقوف بوجه الفرزدق ببني يربوع.

ويلجأ جرير إلى اسلوب السخرية اللاذعة والتهكم الموجع الذي عرف به، وراح يلهب ظهور بني مجاشع بسياط هجائه الساخر، لادراكه الاثر العميق الذي يتركه هذا الاسلوب في الملتقى معجباً والمهجو موجعاً في آن معاً، فقد روي

---

(١) الديوان ٤٥٥.

عنه قوله ((إذا هجوت فاضحك)) [1] ، وعلى الرغم مما يتطلبه الحديث عن مصرع الزبير من رصانة في التعبير ووقار في الالفاظ تتناسب مقامه الديني، فان جريراً حاول ان يوازن بين الأمرين من خلال التركيز على مكانة الزبير الدينية وادعاء الحزن عليه ثم الانتقال إلى السخرية. يقول

زال الجمال بنخل يثرب بالضحى   أو بالرواجح من اباض العامر
ليت الزبير بنا تلّبس حبله   ليس الوفي لجاره كالغادر
وجد الزبير بذي السباع مجاشعاً   للحيثلوط ونزوة من ضاطر
عرفت وجوه مجاشع وكأنها   عفل تدلى دون مدرى الشاصر
باتوا وقد قتل الزبير كأنهم   خور صوادر من نجيل قراقر [2]

لقد فقد نخيل يثرب جماله بمقتل الزبير. وكذلك نخيل (اباض العامر) حيث مصرع زيد بن الخطاب [3]، ولو تعلق حبل الزبير ببني يربوع لوجدهم اوفياء بخلاف مجاشع الغادرين، ثم يصل جرير إلى رسم صورته الساخرة لبني مجاشع، فاختار عبدين مشهورين هما (الحيتلوط والضاطر) ليكونا رمزاً لمهانة مجاشع [4] ثم يصل إلى ذروة السخرية والهزء، حينما يصف مجاشع بانهم تعشوا الخزيز وامتلأت به بطونهم، فصاروا كالإبل التي باتت ليلها تسلح من اكل الحمض.

ويتذكر جرير الحبى – التي مر ذكرها – بوصفها من مفاخر الفرزدق، ويتناولها بسخرية لاذعة، حينما يقابل بينها وبين اكل (الخزيز) فيقول

ودعا زبير فما تحركت الحبى   لو سمتهم جحف الخزيز لثاروا [5]

---

(1) العقد الفريد.

(2) الديوان ٣٠٦.

(3) ينظر معجم ما استعجم (اباض العامر).

(4) الديوان ٣٠٦ هـ ٤.

(5) م. ن ٢٠٣.

ومنبع السخرية هنا هذه المقابلة الطريفة بين الحبى والخنزيز، فيجعل تحركهم لاكل الخزير ثورة، اما إذا استجارهم احد، فهم موثقون بحباهم [٦]

ويضحك جرير — وربما اضحك كثيراً من المتملقين — حينما يشبه مجاشع بالقنافذ الضخمة وبصغار الغنم الدميمة لانهم غرّوا الزبير، يقول:

أجيـــران الزبيـــر غررتمـــوه ... كـــأنكم الـــدلادلُ والقهـــودُ [١]

ويبدو ان جريراً اختار هذه الصورة الساخرة الماكرة لمناسبتها لما عرف من قصر قامة الفرزدق، فوسم بني مجاشع كلهم بهذا الوسم، دون ان يخفى ما للفظتين من رنين قوي توفره لهما الغرابة، فيكون رنينهما ساخراً [٢]

وإذا كان الفرزدق كثيراً ما يفخر بحلل الملوك، فان جريراً لا يستطيع ان ينفي هذه الحقيقة التي يتقدم بها عليه غريمه، فجاء مقتل الزبير لينهي هذه المفخرة، فلا قيمة لمجد قديم يتلوه عار مقيم كمقتل الزبير يقول :

لا تـذكروا حُـلل الملوك فـإنَّكم ... بعـد الزبيـر كحـائضٍ لـم تغسـل [٣]

ان صورة الحائض التي لم تغسل صورة تدعو إلى القرف والاشمئزاز وهي مثار سخرية وتهكم واستخفاف وتحقير [٤] لما تنطوي عليه من فقدان الطهارة وعدم استواء الدين.

ولعل جريراً استحسن هذه الصورة فراح يشبع نهمه وربما نهم الملقين بصور مشابهة كقوله:

---

(٦) ينظر عن سخرية جرير في شعره، جرير حياته وشعره ٣٣٨ — ٣٤٠.

(١) الديوان ١٦٣.

(٢) ينظر الهجاء والهجاؤون ١/ ٣٠.

(٣) الديوان ٤٤٥.

(٤) التهكم والاستخفاف من ابلغ الهجاء واملحه، ينظر العمدة ٢/ ١٣٩.

وقد لبست بعد الزبير مجاشع ... ثياب التي حاضت ولم تغسل الدما
وقد علم الجيران ان مجاشعاً ... فروخ البغايا لا ترى الجار محرما [٥]

فقسوة الهجاء وسخريته هنا نابعة من ارتداء مجاشع بعد مقتل الزبير الثياب النجسة التي لم تتخلص من ادرانها، وهي المرأة الحائضة، ثم اعقبها بصورة اخرى انكى من الأولى، تتمثل في ان مجاشعا فروخ بقايا لا يعرفون للجار محرماً.

ويلتفت جرير إلى صورة ساخرة اخرى لغدر مجاشع ويمزجها بصورة جادة في تفنن عرف باحكامه، يقول:

ومجاشع قصب جوف مكاسره ... صفر القلوب من الاحلام والدين
ينفشون لحاهم بعد جارهم ... لا بارك الله في تلك الثعانين
مثل الضباع تغنيهن نائحةٌ ... تبكي على كمر القتلى بصفين
قالت قريش وللجيران محرمةٌ ... اين الحواري يا فيش البراذين [١]

يقرر جرير في البيت الأول ان مجاشعاً لا احلام لهم ولا دين، فقلوبهم صفر من هاتين الصفتين، وبذلك يشبهون القصب المجوف الذي ينكسر دون جهد. ثم ينتقل إلى هجائه المقذع[٢]، حينما يصورهم وهم ينفشون لحاهم بعد مقتل الزبير، فنفش اللحى هو سمة الوقار عند أهل الدين، ونفش مجاشع للحاهم هو سمة الغدر، فانتقل بهذه الصورة من معناها المألوف إلى معنى مناقض له بدعابة طريفة، ثم يكمل الصورة التهكمية بالدعاء على تلك الثعانين التي نبتت فيها اللحى، ويقفي هذه الصورة بصورة اخرى لا تقل سخرية عن سابقتها، حينما

---

(٥) الديوان ٥٤٦.

(١) الديوان ٥٨٧.

(٢) عن الهجاء المقذع، ينظر الاغاني ٢/٢٥٣، العمدة ٢/١٣٨.

يصورهم بصورة الضباع التي تبكي على كمر القتلى في معركة صفين، وفي الصورة من القساوة ما لا يخفى. ويبدو ان اختيار جرير لمعركة صفين مردهُ إلى كثرة القتلى في هذه المعركة [٣]، ويعود – مرة اخرى – ليتحدث بلسان قريش مستفهماً عن حرمة الحواري، فيخاطبهم بقوله (يا فيش البراذين)، مختاراً اذل مركوب عند العرب، ومختارا منه أسوأ ما فيه. وهنا لا نستبعد ان يكون المتلقون قد استغرقوا ضاحكين من هذه الصور الساخرة التي رسمها جرير لخصومه بني مجاشع [٤]

على ان ما ينبغي ان نشير اليه، ان صورة نقش اللحى قد استوقفت جرير كثيراً لطرافتها فراح يكررها في اكثر من موطن في شعره كقوله:

سقى جدث الزبير ولا سقاهم   بعيج الودق منهمر الغمام
لا عظم غدرةٍ نفشوا لحاهم   غداة العرق اسفل من سنام [٥]

إذن استطاع جرير ان يجعل نفش اللحى مقروناً بالغدر عند مجاشع، وهذا ما كان يتمناه، ليكبح جماح خصمه الفرزدق الذي كثيراً ما كان يزهو بشرف محتده في فخره، الذي بزّ به الشعراء، لانه كان يتلفع بالشرف من هامته إلى قدمه [٦].

والان بعد هذه الرحلة مع جرير ومقتل الزبير بن عوام، من حقنا ان نتساءل هل كان جرير في هجائه هذا للفرزدق صادراً من محبة للزبير، بحيث اظهر هذا الالحاح العنيف على هذه القضية، ام انه استثمرها دون عاطفة صادقة تشده إلى

(٣) ينظر واقعة صفين ٥٥٦.

(٤) ينظر السخرية في الاداب العربي ١٠٣ – ١٠٥.

(٥) الديوان ٥٠١.

(٦) كان الفرزدق يعتد كثيراً بنسبة ويرى نفسه نظيراً للخلفاء في الشرف، ولذلك هجا الخلفاء والامراء دون مبالاة، ينظر طبقات فحول الشعراء ٣٠١/٢ وما بعدها.

الزبير؟.

لعلنا لا نغالي إذ قلنا ان جريراً لم يكن يعينه مقتل الزبير بوصفه صاحب المكانة المعروفة في التاريخ الإسلامي، وانما كان يسعى إلى إيذاء خصمه الفرزدق من خلال هذه الحادثة، حينما حمل الفرزدق ومجاشع جوار الزبير ولم يكن الامر كذلك كما مر في ثنايا البحث. يؤيد هذا اننا لم نجد في شعر مقتل الزبير في ديوان جرير هجاءاً لعبد الله بن جرموز الذي غدر بالزبير، وكان ينبغي ان يأخذ ما يستحق من الهجاء، وكل الذي وجدناه اشارة واحدة إلى الحادثة، هي قوله:

اغـرك جـار ضـل قـائم سـيفه ... فـلا رجـع الكفـين إلاّ مكنّعـا

وآب ابـنُ ذيّـال جميعـاً وانـتمُ ... تعـدون غنمـاً رحلـه المتمزعـا[1]

فجرير يعير الفرزدق ورهطه بعودة (ابن جرموز) سالماً بعد قتله الزبير، دون ان يذكر بسوء، بخلاف ما يقتضيه المقام بوصفه هو القاتل الغادر، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا، اننا نستشعر بان في البيتين ما لا يمكن اخفاءه من الاطراء بابن جرموز، حينما عاد جميعاً أو ظافراً دون ان يعباء ببني مجاشع، ولا نستغرب هذا الاطراء الذي تلمسناه في البيتين، لاب ابن جرموز هو الذي هيأ لجرير فرصة هجاء مجاشع بمثلبة الغدر.

ونجد في ابيات اخرى ما يقوي هذا الاعتقاد الذي قلنا به من موقف جرير من ابن جرموز، حينما ذكر بني سعد بقوله:

لقـد نـزل الفـرزدق دار سـعدٍ ... ليـالي لا يعـفٌ ولا يحـامي

إذا مـا رُمـتَ ويـل أبيـك سـعداً ... لقيـت صـيال مقرمـة سـوام

هـم قتلـوا الزبيـر فلـم تنكـر ... ودقـوا حـوض جعـثن فـي الظـلام

(١) الديوان ٣٣٨.

اضـــيئوا للفـــــرزدق نــــــار ذل ... لينظـــر فـــي اشـــاعرها الـــدوامي
وهـــم جـــروا بنـــات ابيـــك غصـــباً ... ومـــا تركـــوا لجـــارك مـــن ذمـــام
وخـــالي ابـــن الأشـــد ســـما بســـعدٍ ... فجـــاوز يـــوم ثيتـــل وهـــو ســـامي (٢)

فجرير يفتخر ببني سعد، ويهدد الفرزدق ويتوعده بهم، ثم يأتي بادلة على ما يريد، فيذكره بقتلهم الزبير وما فعلوه بجعثن، ويبلغ ذروته حينما يستحضر تاريخ بني سعد في العصر الجاهلي، مشيراً إلى قيادة ابن الأشد (سنان بن سميّ) لبني سعد في يوم (ثيتل) على بكر بن وائل (١).

وهكذا فبنو سعد هم الذين أذلُّوا الفرزدق وقومه، حينما هتكوا جوارهم بمقتل الزبير، ويبدو ان جريراً الذي لجّ كثيراً في هذه الحادثة لا يريد ان يناهض ابناء عمومته (بني سعد)، وهذا يغرينا بالقول، انه لم يعترض على مقتل الزبير، بقدر اعتراضه على مقتله بجوار مجاشع، فترك لب القضية وتمسك بأذيالها، لان هذا يحقق له ما يريد من الحاق الغدر ببني مجاشع. هذا فضلاً عن ان بني سعد – أيضاً، هم الذين اعترضوا جعثن فأسقطوها عن رحالها فهيأوا لجرير قضية أخرى، رأها بعينه مثليه لا تقل عن سابقتها، لذلك الحّ عليها في شعره، وغالباً ما يرد ذكرها مقروناً بذكر مقتل الزبير (٢)

ومع هذا كله فاننا لا نستطيع ان نهمل تماماً ميل جرير إلى ال الزبير حقاً، لان قبيلته (بني يربوع) بايعت عبد الله بن الزبير بالخلافة(٣)، وتصادف هذا

---

(٢) م. ن ٥٠٢.

(١) يوم ثيتل ايام تميم على بكر بن وائل، ويسمى يوم (النباج)، ينظر النقائض ١٠٢٣/٢، مجمع الامثال ٤٠٧/٢، في التاريخ ٥١٣/١، نهاية الادب ٣٨١/١٥.

(٢) ينظر الموشح ١٩٤ – ١٩٥، وينظر عن قصة جعثن النقائض ٢٢٢/١، الشعر والشعراء ٤٤١/١.

(٣) تاريخ الطبري ٩٥/٦.

مع لجوء (النوار)

زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير فأعانها عليه [٤]، مما جعل الفرزدق يهجوه[٥]، فاصبح الحديث عن مقتل الزبير بهذه الطريقة التي يظهر فيها جرير ميلا واضحاًالى ال الزبير، يحقق له تقرباً منهم، حيث ينسق هذا مع رغبة قبيلته، ويخال ميل خصمه الفرزدق.

وإذا كانت هذه الأسباب هي التي دفعت جريراً إلى استثمار هذه القضية فان هذا لا يعني انه التزم بها بصدق تام، فميل المتلقى عصر ئذ إلى التمتع بما يورده الشعراء في نقائضهم، ابعدها عن دائرة الجد الخالص وادخلها في اطار المتعة الفنية التي استقطبت الناس، ولو كانت حقيقة لشهرت معها السيوف[٦]

وهكذا اتيح لجرير ان يستثمر التاريخ في اطاره العام، ويخضعه لتجربته الشخصية، ويعيد صياغته على وفق ما يحتاج إليه، تسانده في ذلك براعة فنية، امكنته من إعادة صياغة الحادثة وإظهارها بثوب فني جديد، وحققت له ما يريد من وقف مدّ الفرزدق في فخره بنفسه وآبائه، وعلى الرغم من هذا كلّه، ظل الفرزدق يتقدم عليه بالفخر، وان كان جرير قد بزه في الهجاء.

(٤) ينظر طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٦.

(٥) ينظر ديوان الفرزدق ٨٧٣.

(٦) ينظر العصر الإسلامي ٢٥٠ - ٢٥١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – طبقة بولاق.

٢. الأغاني – مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. وطبعة دار الفكر ١٩٨٦م.

٣. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) – الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف – مصر ١٩٧٩.

٤. التطور والتجديد في الشعر الأموي – د. شوقي ضيف. ط٢، دار المعارف – مصر ١٩٨٩م.

٥. جرير – حياته وشعره د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – مصر ١٩٦٨.

٦. جمهرة انساب العرب – ابن حزم الأندلسي – تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٢ – ١٣٨٢هـ.

٧. شرح ديوان جرير – تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي – مكتبة محمد حسين النوري، الشركة اللبنانية للكتاب – بيروت د. ت.

٨. ديوان الحادرة – تحقيق د. ناصر الدين الأسد – بيروت ١٩٧٣م.

٩. ديوان الفرزدق – دار صادر – بيروت – لبنان.

١٠. السخرية في الأدب العربي – د. نعمان محمد أمين طه – دار التوفيقية – مصر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

١١. الشعراء نقادا – د. عبد الجبار المطلبي – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط١ ١٩٨٦م.

١٢. الشعر والشعراء – ابن قتيبة – تحقيق وشرح احمد محمد شاكر – دار المعارف، مصر. د. ت.

١٣ .طبقات فحول الشعراء – ابن السلام الجمحي – تحقيق محمود محمد شاكر – مطبعة المدني – القاهرة. د. ت.
١٤ .العصر الإسلامي – د.شوقي ضيف – دار المعارف – مصر – ١٩٦٣م.
١٥ .العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي – تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
١٦ .العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط٤، دار الجيل – بيروت – لبنان ١٩٧٢.
١٧ .الكامل في التاريخ – ابن الأثير – تحقيق محمد يوسف الدقاق – ط١، دار الكتب العلمية بيروت – ١٩٨٧م.
١٨ .الكامل في اللغة والأدب – المبرد – مؤسسة المعارف – بيروت.
١٩ .مجمع الأمثال – الميداني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة / مصر ١٩٥٩م.
٢٠ .معجم ما استعجم – البكري – تحقيق مصطفى السقا – القاهرة ١٩٤٥ – ١٩٥١م.
٢١ .النقائض – أبو عبيدة – تحقيق بيفن – ليون ١٩٠٥ – ١٩٠٨.
٢٢ .نهاية الارب في فنون الأدب – النويري، مصورة عن طبعة دار الكتب.
٢٣ .الهجاء والهجاؤون في الجاهلية – د. محمد محمد حسين – ط٣، دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٠م.
وقعة صفين – نصر بن مزاحم المنقري – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط٢ – ١٣٨٢هـ المؤسسة العربية الحديثة – مطبعة المدني / القاهرة.